محاكمة قصاص

للأستاذ عبد الوهاب الأمين

هذا حديث كنت شاهده عرضاً ، وكان قد جرى بين صديق لي من القصاصين وبين إحدى الإنجليزيات ، لم أشترك فيه إلا بالسمع فقط وإلا بإشارة عارضة أو نظرة تأييد وموافقة عندما كان يفزع إليَّ أحد المتحادثين في غضون الحديث ، فكنت احتمم بالصمت طوال سيره

وقد بدأ هذا الحديث أول ما بدأ تغلب عليه مسحة من التزمت الذي يقتضيه مثل هذا الموقف ، ثم أخذ يتحدر شيئاً فشيئاً إلى الكثير من اللجاجة وقليل من قسوة اللفظ كنت أرى أنهما غير مصطفين

وقد سجلت هذا الحديث لأنه يمثل متهماً يدافع عن نفسه في اتهام لا يمكن أن يبرز في غير هذا السياق من الأخذ والرد ، ولأنه يمثل مفهوماً للأدب الحديث بين عصرين وحضارتين وجنسين

* * *

قالت الجليسة لرفيقتي بعد تطور الكلام — وكان في حفلة من الحفلات العامة — الذي بدأ كما يبدأ كل كلام بين غربيين ببعض المجاملات المعروفة :

— علمت أنك تكتب القصص الصغيرة ، فهل كان ذلك منك اختياراً ، أم أنك كنت تقتفي أثر أحد من الأدباء الذين أعجبت بهم ؟

فأجاب صاحبي :

— من المؤكد أنه اختياري الخاص ؛ وإن كان قصدك بالاقتفاء « التقليد » ، فإن القليل عندنا من أدباء العربية من يكتبون القصص الصغيرة والأقل منهم من يجيدها . وإن كان قصدك اقتفاء سير الأدب الغربي ، فأنت تعلمين أن مثل هذا لا يمكن أن يسمى اقتفاء أو تقليداً ، لأن جميع الأدباء الغربيين تقريباً يكتبون القصص ، بل لعلهم لا يكتبون سواها ، فلا يمكن أن يكون كل واحد مقلداً لكل واحد

— أنا لا أفرق بين الاقتفاء والتقليد ، وإن كنت في الحقيقة لا أرى في التقليد العيب الذي تزعمونه فيه أنتم معشر الشرقيين ، فالحقيقة أن الابتكار نفسه هو تقليد مضاعف

— قد يكون ذلك حقاً ، ولكن رغبة الأديب في القالب الذي يفضله لأداء رسالته الأدبية لا يمكن أن يبت فيه غيره هو . ولا أظن أن هناك من الأدباء الناجحين من سار على طريق مفترح . والحال في هذا كالحال في جميع الأشغال والأعمال ، فلا يفرض النجاح لعمل ما إذا كان ذلك العمل غير مرغوب فيه ، وإذا لم يكن الإلهام من المجهول هو السائق الأول له

— لماذا فرضت أن يكون العمل غير مرغوب فيه إذا كان تقليداً ؟ قد تجيد عملاً ما ولا تدري أنك تجيده حتى يتضح ذلك بمناسبة ما !

— إن ميلي إلى كتابة القصص الصغيرة ليس من هذا النوع ، فإني لم أكتشفه في نفسي اكتشافاً ، بل رأيتني مدفوعاً إليه

— وكيف كنت تشعر عند ما كتبت أول قصة ؟

— لا أذكر أول قصة كتبتها ، ولكني أذكر أول قصة لي نشرت ، وقد كانت سخيفة !

— لم أكن لأستغرب هذا القول منك ، ولن أستغربه إذا سمعتك بعد عشر سنوات تقول عن قصتك التي نشرت أمس أنها سخيفة ! إن في كتابة القصص لمجالاً كثيراً للسخف ، والغريب أن أول من ينبه إليه بعد فوات الوقت هم كتابه !

رأيت صاحبي يتقبل هذا الهجوم بصبر وأناة ، ويحاول أن يدور بالحديث غير مداره ، ولعلها هي الأخرى أدركت أنها قاسية بعض القسوة في قولها ذاك فأردفته قائلة :

— كنت أقصد أن أقول هذا على سبيل المدح لكتاب القصة لا على سبيل القدح فيهم ، فالحق أن الاعتراف بالواقع لا يكون أكثر تجلياً مما هو عليه لدى أرباب القصة

فقال صاحبي :

— لعلك صادقة في قولك هذا . إن « دستويفسكي » مثلاً لم يكن ينقصه أن يبلغ من الفن تلك القدوة التي بلغها لو لم يكن كما وصفت . وكذلك « ل . هـ . لورنس » — من كتابكم — فهو من عباد الواقع ومن أربابه الذين خدموه

فسألته وتقدمت إلى الأمام قليلاً ، وكأنها تريد أن تدعوه إلى معركة :

— هل تحب « لورنس » ؟

— كثيراً جداً

— وماذا يعجبك فى فنه ؟

— إذا طرحنا بيانه الرائع وقدرته الفنية على الأداء جانباً ، فإنى أعجب ، بالإضافة إلى ذلك ، باتجاهه الأدبى ، ولعلى من الزمرة الذين يسمونه بالنبوة بين كتاب جيله !

— لعلك مغرق فى تحمسك ... إن « لورنس » أديب ولا شك ، ولكنه ليس كما وصفته . إنه أديب منافق ! ولكنى لا أريد أن أجادلك فى موضوع «لورنس» بل أود أن تشرح لى كيف تكتب قصصك

— إن كان قصدك وصف الكتابة ونوع المؤثر الذى يحدوني إليها ، فإنى فى الحقيقة لا أقدم على كتابة قصة قبل أن ينزع بى نازع إلى الكتابة . ولا أظن أن وضعى فى ذلك يختلف كثيراً عن وضع الشاعر عند ما تتكون فيه الرغبة إلى نظم القصيد . وفى أكثر الأحيان أرانى أكتب قبل أن يتكون فى مخيلتى كيان القصة أو عمودها الفقرى كما يصطلحون !

فسألته المحدثة بابتسامة غامزة :

— ألا ترى أنك تخلق من أبطال قصصك مخلوقات مبتسرة ! أليس هذا الإنشاء اعتباطاً ؟

فأجاب صاحبي القصصى وكان قد رفع قدح الشاى إلى فمه فأنزله مسرعاً :

— إنى لا أعدو فى ذلك ما تصنعه الطبيعة فى خلق أبنائها ! وأظن أن مهمة الفنان فى هذه الحياة هى أن ينوب عن الطبيعة الأم!

فكأن هذا الجواب أرضاها، فقالت وهى تهز رأسها هزة الموافق:

— ذلك صحيح ... وماذا عن العقدة (Plot) ؟

— هنا موضع الخلاف كما يقولون ، فأنتم فى الغرب تقيمون لها الوزن كل الوزن ؛ أما نحن هنا فقليلاً ما نعنى بها عنايتكم هذه ، وأظن أنك تلاحظين أن آداب الأمم الغربية القريبة إلى الشرق أقل نزوعاً إلى « العقدة » فى قصصها منها فى الأمم الضاربة إلى الغرب . وأقرب مثال إلى ذلك فى نظرى هو الأدب الروسى الذى نستطيع أن نقول : لا عقدة فيه

— ولكن أدبكم على ما أسمع ليس فيه ذلك العمق الموجود فى الأدب الروسى

— ذلك لأن أدبنا لا يزال فى طور التكوين

— وقد كان الأدب الروسى كذلك فى بداية أمره ، ولكنه لم يكن كأدبكم هذا الذى نسمع به ولا نستطيع أن نراه . إن نقدة الأدب عندنا يرون أن أدبكم العربى المعاصر لا يمكن نقله على صورته إلى اللغات الأخرى ، وعلى الأخص منه الشعر ، وليس كذلك الأدب الروسى أو غيره

— قد يكون هناك سبب أساسى وهو أن اللغة العربية عميقة الأداء وأن بعض تعابيرها قد تجمدت كما يقولون ، ولكن المهم فى نظرى هو سير لغتنا بقوة الاستمرار فقط مدة طويلة من الزمن لا بقوة الحياة كما كان ينبغى لها أن تسير ، ولذلك فإنها تخلفت عما سواها من اللغات فى الأداء ، وعليها أن تجتاز كثيراً من العقبات قبل أن تستعيد ماضيها الحافل

وهنا حدثت فترة فى الحديث واتصل نظر المتحاورين بما يجرى فى القاعة من أخذ ورد ثم عطفت المتحدثة مرة أخرى إلى صاحبي وسائلته :

— هل تفضل طريقة غير طريقة القصص فى الأداء والخلق كأديب ، أم أنك قانع بفنك ؟

فأجابها صاحبى بعد فترة وجيزة بتؤدة :

— كنت أتمنى أن أكون شاعراً ولكن ذلك ليس بيدى ، وأظننى لا أعدو الشاعر فى وضعى الآن كقصاص ، ولكنى كما قلت لك لا أفضل على كتابة القصة شيئاً

— ذلك ما ظننت

وبعد برهة وجيزة أخرى رأيت صاحبي ينحاز إليها سائلاً :

هل لى أن أستوضح السيدة أمراً ؟

— نعم

— ماذا تفضلين من أنواع الأدب ؟

— القصة

— وهل أنت قصاصة ؟

فابتسمت المحدثة ابتسامة رطيبة وأومأت إليه برأسها :

— لا أكذبك يا صديق ! إننى أنا أيضاً قصاصة !

ففتحت عينى مستغرباً ، وكذلك كان صاحبي ، فقد جاء جوابها هذا أغرب ما فى الحديث !

عبد الرحمن الأمين

« هكذا أغنى »

الديوان الثانى — للشاعر الكبير حسن اسماعيل

يطلب من دار « الكتب الأهلية » بميدان الأوبرا